# التاسع والصراع الحضاري

د. لطفية الزيات

يتشكك البعض في إمكانية تأثير الثقافة الصهيونية في الثقافة المصرية العربية ذات التاريخ الطويل والمجيد ، ويقولون أين تذهب قطرة من الماء في البحر. وعلى الجانب المقابل والمناقض، ينكر البعض وجود ما يسمى بالغزو الثقافي او التسلل الثقافي ، ويذهب الى ان ما يسمى بالغزو الثقافي انما هو تبادل وتفاعل بين الحضارات ، وهو تبادل وتفاعل خلاّق تغتني به الحضارات . . وتترتب على هذه الدعوى الأخيرة مقولة جديدة تصف الصراع العربي الاسرائيلي **بالصراع الحضاري** ، وتطالب بضرورة الإقرار بحقيقة هذا الصراع ـ واحلال الصراع الحضاري محل الصراع المسلح بين العرب واسرائيل ، وتخرج هذه المقولة بالتالي الى ضرورة انهاء المقاطعة واقامة الحوار بين مثقفي الحضارتين .

وقبل أن أبدأ الدعوى الأولى ، وهي دعوى التشكيك في امكانية تأثير الثقافة الصهيونية على الثقافة المصرية العربية ، أود أن أوضح باختصار المفهوم الذي استخدمه للثقافة ، فالثقافة هي اسلوب حياة وتفكير مجتمع من المجتمعات في فترة من فترات تطوره ، وهي محصلة انجازاته التاريخية المادية والمعنوية ، والمنطلقات الفكرية والروحية التي ارتكزت عليها هذه الانجازات ، ونبعت منها. وهذا المفهوم يتسع للثقافة المكتوبة والشفهية ويتجاوزها ليمتد الى مجموعة التقاليد والمعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية والمؤسسات والتراث والمنطق واسلوب التفكير وصور الذات ومقومات الشخصية القومية متفاعلة بعضها مع البعض، وتلك المحصلة هي التي تسم سلوك وتفكير شعب من الشعوب في فترة تاريخية من فترات تطوره ، وتلك المحصّلة هي ثقافة هذا الشعب .

وفي ظل هذا المفهوم سأحاول أن أعرّف كلاً من الثقافتين، والثقافة الصهيونية في هذا المعنى اسلوب حياة وتفكير شعب ، إن جاز ان نسميه شعباً يقضي نصف حياته في الحرب، والنصف الآخر في معسكرات التدريب استعداداً للحرب. وهو شعب ، إن جان أن يسمّى شعباً ، استولى بالقوة العسكرية المسلحة على أرض ليست بأرضه وبقوة غير قوته الذاتية ، وانما قوى الاستعمار العالمي الذي زرعه في هذه الأرض بهدف الاستيلاء عليها . وهو شعب زرع في أرض غير أرضه بقدرات تقنية ورأسمالية ، تتنامى على مرّ الأيام بدعم امريكي مباشر واستراتيجي ، وهذه القدرات التقنية والرأسمالية لا تنبع من التطور التاريخي لأرض فلسطين التي احتلتها اسرائيل، وتفيض بالتالي عن حاجات هذه الأرض وتتطلب بالضرورة التوسع في مزيد من أرض الغير بهدف تحويل هذه الأرض الى سوق لاستغلال رؤوس الأموال والقدرات التقنية الزائدة عن الحاجة ، وواكب هذا الوضع المادي وساندته عقيدة صهيونية تزداد مع الأيام عنصرية وفاشية ، وتنتشر مع الأيام بحيث تشمل كل فصائل الشعب الاسرائيلي يمينه ويساره ، فيما عدا الحزب الشيوعي، وتوغل مع الأيام في الغيبيات وفي العنجهية والاستعلاء والشراسة ، وتقوم اساساً على شرعية احتلال أرض الغير بالقوة المسلحة لأن ارض فلسطين هي أرض الميعاد ، ولأن كل أرض وطئتها قدم يهودي في الماضي والحاضر، انما هي حق خالص لليهود . وفي محصلة مجتمع عسكري تتفاقم رؤوس أمواله وقدراته التقنية وخاصة في مجال صنع السلاح ، وتتفاقم عقيدته الصهيونية وتوغل في غيبيات مخيفة ومرعبة ، وفي محصلة الحروب المستمرة التى خاضتها اسرائيل ضد العرب والانتصارات التي أحرزتها . ومن محصلة القهر والتعذيب ، والاغتيال الفردي والمذابح المتكررة خرجت الى حيز الوجود الثقافة الصهيونية الاسرائيلية مدعومة ولم تزل بالثقافة الأميركية الواسعة الانتشار والفاعلية.

وتقف ثقافة مصر الحديثة على الجانب المقابل والمضاد. فمنذ الحملة الفرنسية وحتى اوائل السبعينات اندرجت الثقافة المصرية العربية في خط تطور صاعد ، وان لم يخل من المنحنيات ، ونضجت في أتون معارك تحرير متلاحقة ومتتالية ضد المحتل والمستعمر الأجنبي معارك التحم فيها عنصرا الأمة الاسلامي والقبطي، واكتسبت من خلال الشخصية القومية هويتها العربية ومنطلقاتها الفكرية التحررية المعادية لكل انواع الاستعمار والتبعية السياسية والاقتصادية . ومن هذا المنطلق التحرري نبعث كل انجازاتنا المادية والثقافية والعلمية والفنية والأدبية ، وكل اجتهاداتنا الدينية ، واحيائنا للذات ، و ' رب حياتنا اليومي ومنطقنا في التفكير ، ومجموعة المفاهيم والقيم التي تنظم وتحكم سلوكنا اليومي او رؤيتنا للآخرين . وصورتنا عن الذات . وكان هذا هو الوضع الى أن جاء عصر الردّة، يحاول وينجح جزئياً في هدم مقوّمات هذه الثقافة المصرية العربية تمهيداً للتحالف الأمريكي الاسرائيلي المصري.

وقد كانت هذه المقدمة ضرورية لكي لا نتصور أن سحر الثقافة الصهيونية المدعمة امريكياً سحر باتع ولكي لا نتصور

أنها كارثة قدرية لا مرد لها وان قدر الثقافة العربية ان تتأثر بالثقافة الصهيونية ، فالطبيعي الا يحدث هذا التأثير لأن منطلقات الثقافة الصهيونية معادية تمام المعاداة لثقافتنا العربية والواقع انه حدث جزئياً نتيجة للأوضاع والملابسات التي أشرت اليها إشارة سريعة .

وأقول انه الثقافة الاسرائيلية الصهيونية قد استطاعت فعلاً التأثير في الثقافة المصرية العربية والثقافية العربية عامة في تزويد بعض العرب بمنطلقات الفكر الصهيوني بوعي ودون وعي ، وان هذا التأثير قد حدث حتى دون حاجة لاستكمال اجراءات التطبيع بين مصر واسرائيل، وفي ذهني عشرات من منطلقات الصهيونية التي دارت وتدور على عشرات من الألسنة العربية ، ونحن على حد قول البعض الذين ذهبنا وحاربنا اسرائيل اربع مرات ، والخبرة الاسرائيلية بالإضافة الى العمالة العربية تجعل المنطقة فردوس الله على أرضه، الى غير ذلك من المقولات الصهيونية ، ولكني سأكتفي هنا بمثال واحد شامل ويلاقي قبولاً في وجدان الكثير من العرب .

نستمع الآن يومياً، وكل ساعة على ألسنة عربية تردد دعاوى الحكمة والاعتدال والتحضر والتعقل والتحلي بالشعور بالمسؤولية والترفع عن سياسة الشعارات والمزايدات والتشنج ، والتوجه بديلاً من ذلك الى الرأي العام العالمي وخاصة الأمريكي والاسرائيلي ، والتصدي الحضاري لاسرائيل ومواجهتها في الساحة الدولية والمؤتمرات والندوات ، وذلك بمقارعة الحجة بالحجة والبيان بالبيان .

وكل هذه الدعاوى تنطلق من منطلق واحد ، وتتحلّق حول محور واحد هو في حقيقة الأمر منطلق اساسي من منطلقات العقيدة الصهيونية ، وركيزة رئيسية لتحقيق مخططاتها التوسعية ، فسياسة فرض الأمر الواقع على العرب بالقوة المسلحة واجبارهم على تقبل هذا الأمر الواقع ، كامر واقع جزء لا يتجزأ من السياسة الاسرائيلية والعقيدة والثقافة والصهيونية. وسياسة الأمر الواقع هذه سياسة خطيرة ومضللة، تنطوي على منطق كاذب ومضلل. فاحتلال اسرائيل للأراضي العربية، وتفوقها العسكري على الأمة العربية ظاهرة اجتماعية تاريخية قابلة للتغير والتبدل، وليست بظاهرة طبيعية ثابتة وازلية كطلوع الشمس وغروبها . وكفاح الشعوب للتحرر لا يتحقق ما بين يوم وليلة ، ولكنه يتحقق في نهاية المطاف ، واسلحة الشعوب في المقاومة اسلحة متعددة . وما لا تتيحه الأوضاع اليوم من اسلحة تتيحه غدا. ونفس الشعب نفس طويل وهدفه هدف رهين بالتحقق ما ظلّ يحافظ على هوية وعلى ثقافة ومقومات شخصيته القومية ، وما ظل يفكر بعقله لا بعقل عدوه ويصدر عن منطقه لا منطق عدوه . وما ظل الهدف امام عينيه مهما طال المطاف . والعاقل حقاً والحكيم حقاً هو من يتعامل مع الأمر الواقع ، وفقاً لما تمليه عليه مصالحه، ومن يتعامل مع هذا الأمر الواقع من منطلق الرغبة في تغييره لا الابقاء عليه وتكريسه .

ويكفي ان نقول إن أمريكا تضغط الآن بكل قواها لتطبيع العلاقات العربية الاسرائيلية ، أو أن امريكا تهدد منظمات الأمم المتحدة بسحب التمويل ، بالانسحاب من هذه المنظمات ، ما لم يتم الحوار الغربي الاسرائيلي تحت اعلامها . وما يسمى الآن على صفحات الجرائد بالنضال الإيجابي والوحيد والحضاري ، او ما يسمى بالمواجهة مع اسرائيل في المحافل الدولية ، بالحجة والبيان ، ليس سوى استجابة لمطلب اميركا العاجل ، وتنفيذ للمخطط الاسرائيلي الأمريكي .

وعملية التطبيع التي فشلت اسرائيل في تطبيقها في لبنان باحتلال الأرض بالقوة ، وفشلت اسرائيل في انزالها من المستوى الرسمي الى المستوى الشعبي في مصر، تنفذ الآن في مصر وفي البلاد العربية بالتدريج ، وفي هدوء وعلى يد حفنة من المثقفين العرب، تسلب الشعب العربي السلاح المتاح الآن، وهو سلاح المقاطعة الشاملة لاسرائيل، ويوماً بعد يوم تتسع دائرة المتحاورين مع اسرائيل، ويوماً بعد يوم يتحول الحوار في المحافل الدولية الى حوار ثنائي، ويوماً بعد يوم ينضم الى دائرة المثقفين دائرة التجار والخدم والمستخدمين ويوماً بعد يوم نستفيق لنجد التطبيع قد أصبح بدوره امراً واقعاً على المستوى العربي الشعبي ، وحقيقة واقعة لا نملك لها تبديلاً ولا تغيراً . وتكون هذه نهاية المطاف للأرض العربية المحتلة وللهوية العربية والثقافية العربية والشخصية العربية. ومن هنا نقول لأهل الأمر الواقع والحوار والتعقل والحكمة ، ارفعوا ايديكم عنا ، وكفى زيفاً وخداعاً. إن كلماتكم المعسولة عن التصدي والمواجهة وتبادل الحجة لا تخدعنا ، بل هي تحمل لنا موتاً أهون من الموت المادي، لن تمروا سوى على اجسادنا . ولن نكون أول من يقولها ، فقد قالها شعب لبنان ، واستشهد وما زال يقولها ويستشهد دفاعاً عن هويته وعروبته وثقافته واقتصاده ووجوده المستقل الكريم.

ويتعين عليّ أن أردّ على الدعوى الثانية ، والتي تذهب الى ان ما يسمى بالغزو الثقافي انما هو تبادل وتفاعل خلّاق ما بين الحضارات ، وان ما من شيء يسمى بالغزو الثقافي ، ولعلي فندت في معرض حديثي جانباً من هذه الدعوى التي تنتهي بدورها بضرورة الحوار العربي الاسرائيلي .

صحيح أن التبادل بين الحضارات ضرورة ، وان حضارتنا العربية قد أغنت واغتنت بالحضارات الأوروبية والغربية ؟ ولكن من الأسئلة التي تفرض نفسها هنا سؤال: هل تشكل اسرائيل حضارة ؟ وهل تملك اسرائيل ما تمنحنا اياه في هذا الاتجاه ؟ انها لا تملك الا القدرة التقنية والخبرة التقنية التي تجرنا الى التبعية دون سواها .